الفصل الرابع عشر
أدب المستعجمين[1]*

ف ١٤٥- مؤلفات ذات طابع تشريعي أو ديني

ف١٤٦- الشعر الموريسكي: «قصيدة يوسف»، قصائد أخرى في مديح الرسول، الشرطوسي، إبراهيم البُلقَادي، خوان ألونزو، محمد رَيَضَان، رباعيات حاج (الهيشانتي) بُوي مُنْتُون.

ف١٤٧- القصة الموريسكية: قصص ذات موضوعات دينية أو تاريخية أو خيالية، قصص الفروسية.

(*) ترجمت بهذا اللفظ اصطلاح Los Aljamiados، والمراد به في مصطلح التاريخ الإسباني أولئك الذين يتكلمون «العجمية» La Aljamfa، وهي التسمية التي أطلقها الأندلسيون على اللغة القشتالية، ثم أطلقوا على من يتكلمها صفة «الخميادو» أي المستعجم. ويطلق الاسم عادة على أولئك المسلمين الذين ظلوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة وتكلموا الإسبانية ولكنهم استمروا في كتابتها بحروف عربية، كما سيرى القارئ فيما يلي، وقد قست هذا اللفظ على اصطلاح «مستعرب».

ف ١٤٥- مؤلفات ذات طابع تشريعي أو ديني

كانت آخر صورة ظهر فيها أدب الأندلسيين المسلمين هي آثارهم التي كتبوها باللغة الإسبانية مستعملين في كتابتها الحروف العربية (التي تسمى في المصطلح الإسباني الخَمْيَادِيَّة أي المستعجمية، وهي تحريف إسباني للفظ الأعجمية، فقيل: اَلاَجَمِيَّة، ثم اَلاَخامِيَّة، اَلْخَامْيَة aljamia)؛ وهو أمر يدل على حالة الرعب التي كان الموريسكيون(*)(٢) - أصحاب هذه الكتابات - يعيشون في ظلالها بعد سقوط غرناطة في يد النصارى، وخاصة عندما وجدوا أنفسهم مضطرِّين إلى التنصر يتعقبهم «ديوان التحقيق»(٣). وقد انقطعت انقطاعًا يكاد يكون تامًّا الأسباب بين معارفهم الضئيلة عن علوم الإسلام وما كان لأجدادهم الأمجاد من تقاليد علمية رفيعة، ولكنهم لم يتخلوا قط عن أحرف الهجاء العربية، واستمروا يكتبون بها ما لديهم من المعارف للحفاظ على عقيدتهم من ناحية ولتعمية مُتعقبهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى.

ومن الطبيعي أن نجد موضوعات هذه الكتابات المستعجمية وروحها إسلامية خالصة، ولم نتوصل إلى الكشف عن سرها وحل رموزها إلا في القرن التاسع عشر

(*) الموريسكيون Los Moriscos اسم يطلق على جميع من بقي في الأندلس بعد سقوط غرناطة في أيدي فرناندو وإيزابيلا في ٢ يناير ١٤٩٢، وهو صفة من لفظ Moro الذي يطلق في بعض النصوص الإسبانية على عرب إسبانيا أو مسلميها، أو مسلمي الأندلس والمغرب، أو على المسلمين عامة. وأصل هذا اللفظ الأخير لاتيني: Mauri, Maurs وهم عند اللاتين سكان جبال المغرب، وبهم سمي الإقليم موريتانيا Mauretania الذي يعربه العرب إلى مَرْطَانِيَة. ويمكننا على هذا تعريب لفظ Morisco بلفظ المتمرّب أو العارب، ولكني رأيت أن أستعمل الاصطلاح الإسباني في الترجمة العربية؛ لأنه أصبح مصطلحًا مقبولاً في كل اللغات، ثم إنه في الواقع أدل على أولئك المسلمين من أي لفظ آخر؛ وجدير بالذكر أن اللفظ يُستعمل اسمًا وصفة، على الرغم من أنه صفة.

وأكثر هذه الكتب التي كانت تضمها خزائن الموريسكيين ذات موضوعات دينية أو خرافية أو تشريعية. وعندما أخذ الإسبان ينفذون سياسة طرد بقايا المسلمين من البلاد عمد أصحابها إلى إخفائها وسترها عن العيون، ثم أخذت تظهر بعد ذلك رويدًا رويدًا، ولا زلنا نعثر على أطراف منها إلى الآن. ومن أجلّ مؤلّفيها الذين وقفنا على أسمائهم عيسى بن جابر، فقيه مسجد «شقوبية» الجامع، واسمه يُكتب في كتب المستعجمين: عيسى د جابر Ica de Gebir، وهو صاحب «الكتاب الشَّقُوبي» El-Alquiteb Segoviano، وقد ورد تحت اسمه تعريفٌ به بحروف عربية: بْرِ بْيَرْيُه سُنِّي breviario sunni، أي «مختصر في السنة»؛ وهو مختصر صغير في الأخلاق والشريعة. ولا بد أنه كان كثير التداول بين الموريسكيين، إذ إننا وجدنا منه نسخًا عديدة[1].

والاسم الكامل لكتاب ابن جابر هذا كما ورد في النسخة المستعجمة هو:

«إلْلْكِتَبْ شِجُبْيَن، بْرِ بْيَرْي سُنِّي، مُمِرْيَلْ د لُشْ بْرِنْشِبَلِشْ مَنْدَمْيِنْتُشْ إدبدَمْيِنْتُشْ د نُوسْتْرَ شَنْتَ لِيْ إسُنَ»، وهو يفهم إذا نحن رسمناه بحروف لاتينية هكذا :

El Quitab segobiano. Brebiario sunni. Memorial de los principales mandamientos y debedamientos de nuestra santa ley y sunna.

أي: الكتاب الشَّقُوبي. مختصر سني، تذكِرَة في أهم أوامر وواجبات ديننا المقدس وسنتنا.

وقد نشره إدواردو سافدرا بحروف لاتينية وعلق عليه في:

Memorial Historico Espanol. Tomo V, Madrid 1863

وفاتحة الكتاب عربية الروح والسياق، رغم أنها باللغة القشتالية وإليك قطعة منها ننشرها بنصها كما وردت في الأصل، ونرسمها بحروف لاتينية تسهيلاً

لقراءتها:

«En el nombre de un solo Criador, sin comienco, ni ,medio, ni fin, que crio el mundo de nada, y por la su alta providencia embio sus profetas de grado: en fin de los cuales enbio el su escogido, bien todo seguida la palabra aventurado profeta Muhammad, al fin que fuemos criados.

Dixo el onrrado sabidor, mofti, u alfaki del aljama de los moros de la noble y leal ciudad de Segovia Don Ica Jedih (Gebia): compendiosas causas me movieron a interpretar la divinal gracia del Alcoran de lengua arabiga en alchamia sobreque algunos cardenales (mozarabes) me escribieron que lo teniamos encogido y Escondido como cosa no ossada placear, porque no sim grande cause desampare mi nacion para las partes de Levante: por la cual causa me puse a sacarlo en esta lengua castellana, animado de aquella alta autoridad que nos manda y dize que toda criatura que alguna cossa supiere de la Ley lo debe amostrar a todas las crituras del mundo en lenguaje que lo entiendan, si es possible, y esto por evitar las dudas u dificultades en contrario puestas. Plegue a la inmensa piedad de Allah darme gracia con su ayuda, como teniendo el Atafcir del Alcoran delante, lo haga y que sea guia a los que del arabigo son ygnorantes, asi a los propios como a los estranos; y para mayor declaracion hare un traslado de los articulos que ay en nuestro onrrado Alcoran y otras sumas de las sus sentencias, fines y hechos mas importantes debajo de cuya guia governacion tantos y tan grandes principes y reyes y tan ynnumerables gentios biven en libertad y franqueza en las tierras de Promision y Casas santas de Maca y en

otras diversas partes del mundo donde se mantiene verdad y justicia ..»

ولم أترجم هذه القطعة؛ لأن معناها ظاهر؛ ولأن أسلوبها ليس قشتاليًّا صحيحًا وإنما يضم تعبيرات تعسر على الترجمة الدقيقة الحرفية.

والكتاب يقع في فصول كثيرة عن الإيمان وما هو، وما ينبغي على المسلم الاعتقاد به ليصح دينه، والوضوء والطهارة والماء الطاهر وغير الطاهر، والتيمم والصلاة ومواقيتها. وهو يصف طريقة الصلاة ويذكر ما ينبغي أن ينطق به الإنسان في كل حركة من حركاتها. وهو يكتب المصطلحات بالعربية ويرسمها بحروف لاتينية محرَّفة ولكنها تدلنا على الطريقة التي كان مسلمو الأندلس ينطقون بها العربية، مثال ذلك:

(الله أكبر)	Allah ua aqbar
(سبحان ربي العظيم)	Cubhana rbbi ilhadim
(سمع الله لمن حمده)	Cemi allahu limen hamidahu
(اللهم ربنا ولك الحمد)	Allahume rabbana qual col hamdu

وهو يستعمل مصطلح العبادات الإسلامية في صورة قشتالية، فيقول مثلاً: arraquear أي الركوع، مستعملاً لفظة arraqua (الركعة) في صورة فعل مضيفًا إليها ar. ويقول: anefiles أي النوافل، جامعًا لفظة نافلة جمعًا قشتاليًّا؛ وكذلك adaheas أي الأضحيات، وما إلى ذلك.

وهو يذكر في فاتحة الكتاب أنه ألفه استجابة لطلب رجل تونسي يُسمى سيتي بولجايز Citi Bulgaiz (سيدي أبو الجيش، أبو القيس، أبو الغازي؟)[٥].

وجدنا كذلك كتابًا يُنسب إلى رجل يستتر تحت اسم «مَنْثِبُ د أَرِبَلُه» (Mamcebo de Arebalo) أي رفيق أريفالو) يسمى «التفسيرة» أو «التَّفْسِرة» نلمح فيه أثر آراء الغزالي.

والمؤلف يبدأ كتابه بذكر ما دفعه إلى تأليفه، ويحكي كيف اجتمع بنفر من المسلمين فيهم سبعة من العلماء، وتذاكروا سوء حال المسلمين ثم تحدثوا في أمور الدين فطلب إليه الناس أن يؤلف لهم في الدين كتابًا فكان هذا الكتاب، وإليك فقرة من فاتحة الكتاب ننقلها كما هي في المخطوط ونترجمها إلى العربية:

١- «إِرَ أُنْ دِيَا دِلُشْ شْيِتِ دل أَنُ ١-«Era un dia de lox siete del ano

٢- بِنْتِيْنْكُوِينُ د دُلْقَعْدَهْ، فُوِيرُنْ أَخْنْتَدُشْ ٢- benticinqueno de Dulquiada. Fueron ajuntadox

٣- إن ثَرَجْتُ أَنَ كُنْبَنْيَ د أُنْرَدُش مُثْلِمِشْ ٣- en caragoca una conpana de onrradox muclimex,

٤- أَدُنْد شِأَلْيَرُنْ مَشْ د بِينْتِ مُثْلِمِشْ ٤- adonde xe hallaron max de beinte muclimex

٥- إِنْثِرِ إِلْيُشْ شْيِتِ أَلِمِشْ دُ كُتُشْ ٥- y entre ellox xiete alimex doctox

٦- إِفْدِلَدُشْ إِدِيْبُوشْ دِلْ أَدُهَرْ ٦- y fadladox; u despues del adohar

٧- كُمِنْثُرُنْ أَثْرَثَرْ د نُوِشْتْرُشْ دُولُشْ ٧- comencaron a tratar de nuextrox duelox

٨- إِكَدُوُنْ دِشْ شْ أَرِنْجَ، إِنْثِرِ ٨- y cada uno dixo xu arenga; y entre

٩- مُتْشَشْ كُشَشْ نُفَلْتْ كَيْنْ دِشْ كُمُ ٩- muchax coxax no falto quien dixo como.

١٠- إِرَجْرَنْد نُوِشْتْرَ يِرْدِدَ إِدِكُوُنْ بُكَ ١٠- era grande nuexetra perdida y de

cuan poca

١١- إِتْشْيَا إِرَ نْوِشْتْرَ أُبْرِ، إِديشْ أُتْرُ 11- exencia era nuestra obra; y dexo otro.

١٢- أَلِمْ كِلُشْ تْرَبَخْسْ كِتِيَّمُشْ، إِلُشْ 12- alim que lox trajox que teniamox, y los

١٣- كِدِ كَدَدِيَ شِنُشْ أَبَرِخَبَنْ، كِتُدُ شِرِيَّ 13- que de cada dia xe nox aparejaban, que todo xeria

١٤- بَرَمَشْ مِرِتَنْيَا، إِرِيُجْنَرُنْ 14- para max meritanca; y repugnaron

١٥- شُرِتْشْ رِتْيِنْدُ كِلُشْ تْرِيخْسْ 15- xu dicho, diciendo que lox trabajox

١٦- نُكُنْبِلِيَنْ بَرَ نِنْجُنْ مِنُشْكَبُ دِ لأُبْرَ 16- no cunplian para ningun menoxcabo de la obra

١٧- بْرِتْتَدَ إِ كِفَلْتَنْدُ لَمدُلَ بْرِنْيَبَالْ كِإِشْ 17- precetada (preceptuada) y que faltando la medula principal,que ex

١٨- اللِّيَمَمْيِنْتُ بَرَ لأَتَلاَّ كِ بْرَ نِبُدِيًّا شِرْ 18- el llamamiento para la acala, que la obra no podia xer

١٩- جْرَّاتَا ...» 19- grata...»

وترجمتها سطرًا بسطر:

١- في يوم من الأيام السبعة السنوية.

٢- الخامس والعشرين من ذي القعدة، اجتمع

٣- في سرقسطة جمع من أشراف المسلمين

٤- حيث وُجد أكثر من عشرين مسلمًا

٥- وكان بينهم سبعة علماء راسخون في العلم

٦- وفاضلون، وبعد الظهر

٧- أخذوا يعالجون آلامنَا،

٨- وقال كل واحد منهم كلامه. ومن بين

٩- أشياء كثيرة [تكلموا فيها] لم يخلُ [الأمر] من واحد قال: «كيف

١٠- كانت خسارتنا كبيرة، وما أقل

١١- جدوى عملنا»، وقال

١٢- عالم: «إن كل الأعمال التي بين أيدينا والأعمال

١٣- التي تشغلنا كل يوم، إن كل هذه ستكون

١٤- عظيمة الأجر»، فأنفوا من

١٥- قوله قائلين: «إن الأشغال [اليومية]

١٦- لا تأثير لها على العمل [الديني]

١٧- المفروض، وإنه إذا انعدم الشيء الأساسي - وهو

١٨- استجابة الداعي للصلاة - لا يمكن أن يكون العمل

١٩- مقبولاً».

ثم يذكر المؤلف كيف استمر هذا الحديث، وكيف أن المجتمعين عندما علموا بأنه ذاهب للحج أكرموه، وتبرع واحد منهم - وهو الدون مَنْرِيك دِ سِجُوبيا (شقوبية، Manrique de Segovia) - بعشرة دوبلات موريسكية وكذلك تبرع له الآخرون، وطلبوا أن يصلي بهم، فأقام الخطبة وصلى بهم. ثم طلبوا إليه أن يكتب لهم تفسيرًا للقرآن مختصرًا وواضحًا ما أمكن، فألف لهم هذه «التفسيرة» أو «التفسرة». ثم يلي ذلك الكلام في فصولٍ كثيرة قصيرة عن الدين والإيمان والقرآن والصلاة والخير، وكلام عن الأنبياء والصالحين والزهاد. وهو يسند بعض كلامه إلى نفر من علماء الإسلام يكتب أسماءهم في صيغ قشتالية مثل: أبُدَرْدَايْ (أبو الدرداء) وكَتادَتا (قتادة) وكعب الحبار (كعب الأحبار) وإبسان (ابن سينا) وإبان

رويس (ابن رشد) وما إلى ذلك ...[*].

وهناك كتاب آخر نجهل اسم مؤلفه، ولكننا نستدل من كتابه على أنه كان ممن لجأ إلى تونس، واسم كتابه «دِ لَكْرِينْثْيَا إِلْكِ دِبِ سِيرْ إِلْمَهُومِتَانُو إِأْتْرَشْ كُشَشْ كُرْيُشَشْ»[٦] De la creencia y lo que debe xaber el Mahometano y otrax coxax curioxax أي «كتاب في العقيدة وما ينبغي على المسلم أن يعرفه وأشياء أخرى غريبة»، وهو يتحدث فيه عن الأخلاق والطقوس الدينية حديثًا مرسلاً على النحو الذي نجده في كتب الأدب، ويختلط بذلك كله شيء شبيه بقصة عنوانها El arrepentamiento del desdichado (توبة البائس)، وقد قال عنها الأستاذ أوليفر آسين: إننا نجد فيها «ثقافة وذوقًا أدبيًا وأصولاً إسبانية خالصة أُخذت عنها»، وقد وجد نفس الأستاذ في كتابة هذا الموريسكي آثارًا لكتابات لوب دفيجا Lope de Viga الأديب الإسباني المعروف. ومن كُتَّاب الموريسكيين الذين لا تخلو آثارهم من طرافة خُوَانْ بيريث Juan Perez - ويسمى أيضًا إبراهيم تَيْبيلي Ibrahim Taibili - الذي نظم قصيدة ينقض فيها النصرانية ويساجل أصحابها.

ولا نعدم بين هذه الكتب ترجمات لكتب مشرقية، كما نجد في رسالة الفقه المالكي المسماة «كتاب التفريع» (أَلْكِتِبْ دِ لا تَفْرِيَه Alquiteb de la Tafria) لأبي القاسم عبيد الله بن الحُسين بن الحسن بن الجَلاَّب البصري المالكي، ولدينا منه نسخة أخرى مكتوبة بحروف لاتينية[*]

(*) J.RIBERA y M. ASIN, Manuscritos Arabes y Aljamiados de la Bibliotcca de la Junta (Madrid, 1912) pp 217-228

(*) هذا الكتاب ترجمة قشتالية لكتاب «التفريع في الفقه» لابن جلاب البصري المشار إليه، قام بها مترجم لم يذكر اسمه، وكتب هذا النص القشتالي بحروف عربية نسَّاخ قال بالعربية في =

ولن نقف طويلاً عند كتب الموريسكيين التي تدور حول موضوعات الدين والقراءات والعبادات والمواعظ وصيغ الطلاسم وما إليها، إذ إن قيمتها الأدبية ضئيلة، وهذا لا يمنع من القول بأنها على أعظم جانب من الأهمية في تعرف أحوال المجتمع الموريسكي؛ ولكننا سنلم بذكر بعض منظومات الموريسكيين.

ف ١٤٦ - الشعر الموريسكي

كُتبت «قصيدة يوسف» في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلاديين، وهي تسمى عادة في كتب الأدب El Poema de Josè ولكن عنوانها الحقيقي كما كتبه صاحبها هو «حديث يوسف» El-Alhadits de Josè. وهي منظومة في مقطعات من البحر القشتالي القديم المعروف بالكوادرنو بيّا Cuaderno Via، وهي قصائد تُنظم كل أربعة أبيات منها على قافية واحدة، وصاحبها موريسكي من أهل أرغون نجهل اسمه، وقد استدللنا على أنه من هذه الناحية عالم بخصائص اللهجة القشتالية التي يستعملها. والقصيدة تقص علينا قصة سيدنا يوسف بن يعقوب كما تُروى في «سورة يوسف» من القرآن الكريم، مختلطة بالكثير من الأساطير الإسلامية التي تنسب إلى كعب الأحبار خاصة، وهي أساطير مستقاة من الإسرائيليات[٧].

لوفيما يلي قطعتان من هذه القصيدة في لغتها القشتالية تعطي القارئ فكرة

=

نهاية الكتاب: كمل التفريع لابن جلاب ... يوم الاثنان لثمانية يومًا من شهر مَرس موافق في سبع وعشرين من الهلال ربيع الأوال عام ثلاثة وسبعين وتسعماية على يد المعترف بتقصيره عن شكر ربه يمن (؟) أشقر بن ...»؛ وقد تركت ألفاظه على حالها.

ولا زال لدينا نسختان من الأصل العربي لهذا الكتاب. انظر: بروكلمان، تاريخ، ج١، ص ١٧٧ وهو كتاب في الفقه على مذهب الإمام مالك.

Cf: J.RIBERA y M.ASIN, op. cit. pp. 131-132.

عن قالبها ونرسمها بحروف لاتينية لتيسير قراءتها:

«Reutaban a Zalija las duennas del lugar

porque con su cativo queria voltariar;

Ella de que lo supo arte las fuè a buscar

Convidolas a todas è Ilevolas a yantar

Diolas ricos comeres è vinos esmerados,

Que iban hi todas agodas de dictados:

Diolas sendas toronjas è canniuete en las manos

Tajantes è apuestos è muy bien temperados

وها هي ترجمتها مع فقرات أخرى من القصيدة تظهر فيها متابعة الشاعر للجانب القصصي من السورة القرآنية:

ولامت نساء الناحية زليخة

لأنها أرادت أن تلهو مع أسيرها

ولما علمت هي بذلك سعت

إلى أن تدعوهن كلهن إلى الطعام

وقدمت إليهن أطعمة طيبة وخمرًا منتقى

وذهبن جميعًا إلى هنالك ليستمتعن بهذه الأشياء

وأعطت لكل منهن برتقالة وسكينًا

قاطعًا ومُعَدًّا ومسنونًا سنًّا طيبًا

وذهبت زليخة إلى الموضع الذي كان فيه يوسف

وهيأته على أجمل صورة بملابس أرجوانية من الحرير

وزينته زينة بالغة بالجواهر

وأرسلته إلى النساء، سوط عذاب في يدها

فلما رأينه طار صوابهن

إذ إنه بلغ من الجمال وحسن الهيئة ..

بحيث ظننَّه ملاكًا، ومسهن الجنون

وقطعن أيديهن دون أن ينتبهن

وسال الدم على البرتقال ..

فلما رأت زليخة ذلك سُرَّت سرورًا عظيمًا

وقالت لهن: «أيتها المجنونات، ماذا أنتن صانعات دون أن تدرين؟ إن الدم يسيل على أيديكن!»

فلما رأين الدم أحسسن بمدى جنونهن

وقالت لهن زليخة: «أنتن أصابكن الجنون دون أن تدرين وصرتن إلى هذه الحال من نظرة واحدة فكيف بحالي وقد طال الوقت بي؟»

وقالت النساء: «لا لوم لنا عليك ..

ولقد أخطأنا فيما ظننناه بك

وسنعمل على أن نجعله في يديك بأسرع ما يُستطاع

حتى يتم بينكما الوصال ...»[*]

والغالب كذلك أن رباعيات المدحة النبوية المسماة «المدحة د اَلْبَنْتَهْ أَلْ اَلْنَّبي محمد Almadha de alabandca al annabi Mohammad (مدحة مديح النبي محمد) ترجع إلى القرن الرابع عشر، وقد نشرها مُلَرْ وهي مصوغة في قالب الزجل، وقد وردت الخرجةُ فيها مكتوبة بحروف عربية، وإليك غصنين منها:

(*) F. GUILLEN ROBLES, Leyendas de Josè y de Alejandro el Magno (Zaragoza, 1888) p. XXVI

Senor, fes tu accala sobre'el,

Y fensnos amar con èl,

Sacanox en su tropel,

Jus la sena de Mohammad

يا حبيبي يا محمد، والصلاة على محمد

Quien quiere buena ventura,

Y alcanzar grada de latura,

Porponga en la noch oscura,

I'accala sobre Mohammad.

يا حبيبي يا محمد، والصلاة على محمد

وترجمتها:

يا ربنا، صلِّ عليه

واشملنا بحبك معه

وأخرجنا في جماعته.

في رحاب محمد

يا حبيبي يا محمد، والصلاة على محمد

ومَنْ يُرِدْ حسن المآلِ

وبلوغ المقام العالي

فليكثر في ظلام الليالي

من الصلاة على محمد

يا حبيبي يا محمد، والصلاة على محمد[٨].

وإلى ذلك العصر كذلك ترجع «قصيدة مديح محمد» Poema de alabanza de Mohammad التي نشراها جايانجوس وترجمها «تيكنور» وهي في شعر أوروبي

إلِكسَنْدرِيني، ومطلعها يذكرنا بمطلع «قصيدة يوسف» وهو:

Los lóores son ad allah, el alto, el verdádero,
onrado y cumplido, senor muy derechero
Sennor de todo; uno solo senero,
franco, pederoso, ordenador certero.

وترجمتها:

الحمد لله المتعال الحق
ذي الإجلال والكمال وهو رب عادل
رب كل شيء، واحد أحد وذو سيادة
صريح قوي صاحب الأمر، لا شك فيه[٩].

ويمكننا أنْ نذكر من أهل القرنين الرابع عشر والخامس عشر محمد الشرطوسي Mahomat al-Xartosi طبيب أمير البحر دْيجُو أُورْنادُو دي مِنْدُوزَا Diego Hurtado de Mendoza، وكان ينظم أغاني «بارعة جدًّا ذات ألفاظ بالغة الجمال» يتعرض فيها لموضوعات عسيرة تتعلق بالقدر والاختيار بحسب ما يقول صاحب «ديوان بَيَّانه» El cancionero de Baena.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد شعراء الموريسكيين يستخدمون بحور الشعر الإسباني بمهارة، وكانوا يستخدمونها بوجه خاص في نشر أصول عقيدتهم بين جمهور الناس، ومنهم إبراهيم البُلفادي Ibrahim de Bolafd الذي كتب رسالة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وقد علّقنا على شرح عليها عنوانه:

Comentacion sobre un tratado que compuso Ibrahim de Bolfad, becino de Argel, ciego de la bista corporal y alumbrado de la del coracon y entendimiento

(شرح على الرسالة التي ألفها إبراهيم البلفادي نزيل الجزائر، وهو أعمى البصر منير القلب والذهن)(*). وقد نظم البُلفادي مخمسة يشرح فيها عقيدة الإسلام، وإليك غصنين منها يدوران حول وجود الله:

Y el testimonio de aber
Senor Dios forcosamente
Es lo criado; y tener
Color, tiempo, y fallecer;
Como el bibir de la jente.
Pues ya en lo criado bemos
No ay obras sin causador
De donde claro entendemos
Que aqueste ser que tenemos
Sin duda tiene obrador.

وترجمتها:

والدليل على وجود
ربٍّ إله بالضرورة
هي المخلوقات نفسها، وأننا نجد
اللون والزمن والموت
كما نرى الناس يحيون
وحيث إننا نرى في عالم المخلوقات

(*) JAIME OLIVER ASIN, Un morisco de Tunez.

أنه لا فعل بدون فاعل
فمن هذا نفهم بوضوح
أن هذا الكيان الذي نراه
له من غير شك صانع

وفي التعليق الذي وضعه صاحب هذه المنظومة على قصيدته، يذكر كيف كان يتخلل الصلاة تمثيل قطعة مسرحية تدور حول معجزات محمد ﷺ يتعرض الشاعر والممثلون لشيء غير يسير من الخطر أثناء تمثيلها[*](١٠).

وكان الموريسكيون يصوغون أشعارهم في قوالب من شعر الأغاني الإسبانية المعروفة بالرومانثس (los Romances) التي كانت شائعة في ذلك العصر، ومن ذلك ما فعله المعلم خوان ألفونسو الذي هاجر إلى تيطوان لكي يمارس شعائر الإسلام من غير حرج، وهناك كتب قصيدة يحمل فيها على النصرانية حملة شعواء يتجلى فيها ما كان لديه من ثقافة كلاسيكيّة. وإليك فقرة يحمل فيها على النصارى:

Cuerbo maldito espanol,
Pestifero canzerbero,*
Que estas con tus tres cabezas
A la puerta del infierno

وترجمتها:

(*) رفع المؤلف هذه الفقرة من الطبعة الثانية من كتابه للاختصار، فأثبتها هنا لما فيه من الفائدة.

(*) Canzerbero هو بواب الجحيم، وتصوّره الأساطير في صورة كلب ذي ثلاث رءوس، وهي صورة مقتبسة من الأساطير الإغريقية القديمة.

أيها الغراب الإسباني الملعون
يا ناشر الوباء، أيها السجان البغيض
ها أنت واقف برءوسك الثلاثة
على أبواب الجحيم ..

ومن أجلّ شعراء الموريسكيين شأنًا محمد رَيضَان وأصله من روطة (Rueda del jalon). وقد وضع في سنة ١٦٠٣ في شعر إسباني «تاريخ نسب محمد ﷺ» Historia Genealogica de Mahoma ضمّنه ما ورد في كتاب للحسن البصري عن النسب النبوي، ونظم كذلك «قصة فزع يوم الحساب» Historia del espanto del dia del juicio، و «أنشودة شهور السنة» Canto de las lunas del ano، و «قصيدة أسماء الله الحسنى» Los nombres de Allah، وسنورد من شعره هنا بعض أبيات من «تاريخ نسب محمد» يصف فيها عزرائيل ملك الموت عندما بعثه الله لينذر إبراهيم الخليل:

yo soy quien mi nombre temen	-	cuantos memoran mi nombre,
desde la mas baxa tierra	-	hasta las mas altas torres
yo soy el que nadi esenta	-	de mis amaragas pasiones;
a todos los hago iguales	-	a los grandes y menores,
desde el labrador mas baxo	-	al emperador mas noble
y desde el mas alto rey	-	a los mas baxos pastores
yo soy la sola atalaya	-	que a mi vista no se asconde
criatura que alma tenga	-	ni cosa que vida goce,
el que las copiasas huestes	-	acaba, deshace y rompe;
y el que los cuerpos despoja	-	de sus amados *arrohes*

No quiero tregua con nadi	-	Jamas escucho razones;
de ninguno soy amigo	-	a todos trato de un orden.
Azaragel me apelliden	-	*Malac almauti* es mi nombre
quien nunca temio, y le temen	-	todas las generacionses.

وترجمتها:

أنا الذي تخشون اسمي	-	عندما تذكرون اسمي
من أسفل الأرضين	-	إلى أعلى الأبراج
أنا الذي لا يفلت أحد	-	من رغبتي المريرة
إنني أجعل الجميع سواء	-	الكبار منهم والصغار
من أوضع العمال	-	إلى أنبل الأباطرة
ومن أرفع الملوك	-	إلى أبسط الرعاة
أنا الطليعة الوحيدة	-	الذي لا يغيب عن بصري
مخلوق في بدنه روح	-	أو شيء ينعم بحياة
أنا الذي أنزل بالجيوش الجرارة	-	الفناء والتشتيت والانكسار
أنا الذي أجرد الأجساد	-	من أرواحها العزيزة
.....	-	.....
لست أريد أن أهادن أحدًا	-	ولا أصغي أبدًا لكلام
ولست صديقًا لأحد	-	أعامل الكل بناء على نظام
عزرائيل يسمونني	-	ملك الموت اسمي
أنا الذي لم أعرف الخوف قطُّ	-	جيلاً بعد جيل[11]

ومن بين هؤلاء الشعراء الموريسكيين من كان يجيد النظم في بحور الشعر بإيطالية، التي شاعت في إسبانيا ذلك الحين وصب في قوالبها شعراء الإسبان عامة. وإليك قطعة من أغنية soneto نظمها شاعر موريسكي حول موضوع طرد الإسبان لقومه الموريسكيين من البلاد:

Dios que a los suyos padeciendo mira
Muerte en la vida y en le cuerpo infierno
Por pecados de padres sin gobierno,
O por la causa que a su globo admira
Alca a la ardiente espada de su yra;

وترجمتها:

يا رب يا من ترى ما يعانيه عبادك
وهم أموات في قيد الحياة وأجسادهم تتلظى
يتعذبون بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون بغير وازع
أو لأنك تنظر إلى خلقك في رضا
ارفع حربة غضبك الحامية

أما الكتاب بالغ الغرابة المسمى «رباعيات حاج بويْ مُنثون» Las Coplas del Al Hichante de Puey Moncon فيضم وصف رحلة إلى مكة قام بها صاحبها في القرن السادس عشر ونظمها في شعر قشتالي سهل بسيط يتكون من مقطعات coplas كل مقطعة منها ثمانية أبيات. وبوي منثون من قرية على حدود قطلونية[١٢].

لورحلة حاج بوي منثون رحلة حقيقية قام بها صاحبها من بلده إلى بلنسية، ومنها ركب البحر إلى تونس، ثم زار مصر ووصف الأراضي المقدسة؛ حيث زار مكة والمدينة، ووصف ذلك كله في شعر بسيط سهل يفيض حماسًا وخيالاً شاعريًا وقد

وُجد نصها الإسباني مكتوبًا بحروف عربية عسيرة القراءة. وقد تمكن من فك رموزها ونشرها بحروف لاتينية مَرْيانو دي بانو إي رواتا Mariano de Pano y Ruata، وإليك فقرة منها بحروفها العربية نتبعها بنصها بالحروف اللاتينية مع فقرة أخرى وترجمتها؛ وهو يصف فيها أهوال يوم الحشر:

إِمَشْ كَا أَلْيِى إِشْتَ، الْبَلْ آدُنْدَشا
غِنِ لَا ءامُشْ كَا إِلي تُدَشْ كُنْ
غَرَنْ مَلْ جُنْتَ ما نِتانُشْ
يا رَامُش دُنْدَا تُدشْ لرَرَا
إِءَارُّ راش لُشْ كالله نُشَارْ
بَرامُش كاهَرَامش باقَدُرَاش

LXXVII

Y mas que alli esta el val
A donde, segun leemos
Qu alli todos con gran mal
Juntamente nos veremos;
Doude todos Ilooraremos
Nuestras faltas y errores,
Los gue Ala no serviremos,
Què haremos pecadores.

LXXVIII

Alli hombres y mujeres
Todos seremos juntados,
De las obras que hatemos

Muy bien seremos pagados,

No nadi perjudicamos;

Sino por justa razon

Segun haremos las obras

Asi habremos el galardon

وترجمتها:

ثم إنه هناك يوجد الوادي

حيث، بحسب ما نقرأ في الكتب،

سنكون هناك جميعًا في ضيق عظيم

وسيرى بعضنا بعضًا متجاورين

وهناك سنبكي جميعًا

ذنوبنا وأخطاءنا

ونحن الذين لم نقم بواجب الله

ماذا نفعل نحن الخاطئين؟

هناك، رجالاً ونساءً

سنحشر معًا جميعًا

وعن الأعمال [الصالحة] التي عملناها

سنُجزى جزاءً طيبًا

ولن ينال أحد عقابًا

إلا بحساب عادل

وعلى قدر أعمالنا سيكون الجزاء[*].

(*) MARIANO DE PANO y RUATA, Las Coplas del Peregrino de Puey Moncon =

ف ١٤٧ - القصة الموريسكية

وللموريسكيين أدب قصصي، وهو أعظم قيمة من شعرهم - من الناحية الأدبية - وأساطيرهم وقصصهم تعرض علينا في لغة قشتالية روايات ذات أصل عربي في الغالب. وهي حكايات تتخللها وتزيدها طلاوة من حين لحين مشاهد من حياة عيسى وموسى ويعقوب عليهم السلام، ومحمد ﷺ وصحابته بوجه خاص، وهي تتسم جميعها بسمة ظاهرة: هي توارد أحاديث العجائب في ثناياها، ونذكر مما يدور حول موسى من هذا القَصص الحكاية المسماة «حديث موسى مع يعقوب الجزار»: El Alhadiz de Musa con Jacob el carnicero ونحن نلحظ تشابهًا بينها وبين قصة «الهالك لعدم ثقته في الله»: El Condenado por desconfiado للكاتب الإسباني تيرسو دي مولينا Tirso de Molina[١٣]، وجدير بالذكر من هذه الأساطير ما يتصل بطفولة عيسى - عليه السلام - إذ هو مستقًى مما في الأناجيل الزائفة، ومثال ذلك الأسطورة المسماة «حديث الجمجمة التي مر بها عيسى» Alhadit de la calabera que encontro Aica إذ هي تضم وصفًا للجحيم.

وعندما تعرض هذه الأساطير لحياة محمد ﷺ تقص علينا سلسلة الحكايات الخاصة بمولده وشبابه ومغازيه، وأخبار نفر من صحابته الأولين، وعليّ بن أبي طالب بخاصة، ومثال ذلك «حديث قصر الذهب وقصة الثعبان» Alhadiz del alcazar de oro y la estoria de la culebra، و«حديث عليٍّ مع الأربعين فتاة» Alhadiz de Ali con las cuarenta doncellas، و «حديث تميم المختطف من دينه» وهي قصة تدور حول تميم الداري (ولهذا تسمى في بعض الأحيان el Recontamiento de Temim Addar)، وهي تصف اختطاف الجن له ونقلهم إياه إلى مساكنهم، وتقص كيف عاد بعد

=

(Coleccion de Estudios Arabes, vol I) Zaragoza 1897, pp. 227-228

ذلك إلى الدنيا. ويقول عنها منندذ إي بلايو: «إنها قصة يشترك فيها الجن - صالحون وغير صالحين - وتصف لنا رحلات عجيبة في البر والبحر وفي بلاد مجهولة، ومن ثم فإننا نجد هذه الرحلات تدور في عالم بين الحقيقة والأحلام وما يتخلل ذلك من رؤى صوفية يراها بطل القصة في نومه، ذلك كله يجعل من هذه السياحات مجموعًا هو أقرب إلى الغرابة منه إلى الخيال، ولكنه - آخر الأمر - غني من ناحية الابتكار»(*)، مما يذكرنا بأقاصيص ألف ليلة وليلة.

وموضوع إحدى قصص هذه المجموعة من الحكايات التي تناقلها الموريسكيون هو «حكاية مدينة النحاس والقماقم»:

La Estoria de la ciudad de Alation y de los alcancamos

نرى فيها سليمان عليه السلام يحبس الشياطين، وهي حكاية تشبه الأساطير التي نُسجت حول فتح العرب للأندلس كما كان المصريون والشاميون يروونها. ولا تخلو هذه الأقاصيص من أساطير أخرى تدور حول الملك سليمان: «الذي ينسب إليه الشرقيون العلم بأشياء لا تحصى، علاوة على ما تصفه به الكتب المقدسة من قوى خارقة، منها ملك زمام الريح، فكان يستطيع الانتقال على جناحها من مكان إلى مكان في لمح البصر، ومنها إدراكه لغة الطير وهمهمة الحشرات وصياح الوحوش، وقدرته على الإبصار على مسافات مترامية، وطاعة الوحوش له وإتيان النسور إليه خافضة جناح الطاعة، وتحت يده خزائن لا تنفد، ويتختم بخاتم يعرف بواسطته كل ما مضى وما سيقبل، ويُصدر أوامره إلى الجن فيقيمون له المعابد والقصور ... إلخ»(*). بهذا كله تحدثنا قصة من هذه القصص عنوانها:

(*) MENENDEZ PELAYO, origenes de la novela (Madrid, 1953), 1.111

(*) MENENDEZ PELAYO, op. cit. I. P. 109

Recontamiento de Sulaiman cuando lo reprobo Allah en quitarle la onnra y ando cuarenta dias como pobre demandando limosna.

«حكاية سليمان عندما عاقبه الله بتجريده من عزه فمضى يضرب في الأرض أربعين يومًا شحَّاذًا يتكفف الناس».

أما «حكاية ما حدث لجماعة من العلماء الصالحين» فعنوانها في الأصل:

Rcontamiento de Sulaiman que acontecio a una partida de sabios *zelihes*.

وهي ذات مغزى روحي ديني، وهي تقص علينا كيف أن ناسكًا مسلمًا هَوِي امرأة نصرانية فارتد عن دينه بسببها، ثم عاد فندم على ما فعل وتاب وأدركته المغفرة ودخلت محبوبته في الإسلام. ومثلها حكاية العابد والمرأة السمينة (*Alabid* y la mujer encarnes)، وكلها تعرض علينا هذا اللون من القوة (الروحية) الذي تحدثنا عنه «حيوات الآباء» Vitae Patrum* ، مثل قصة الناسك الذي أرادت المقادير أن يقضي الليل مع امرأة في غرفة واحدة، فجعل كلما همت بها نفسه يمد أصابعه إلى نار شمعة لتلذعها؛ تذكيرًا لنفسه بعذاب جهنم، فترتد عما تريد. ومن بينها كذلك حكاية الأستاذ آسين أنها مقتبسة من قصة معروفة كثيرة التوارد فيما يُحكى من تراجم الزهاد، وهي الحكاية اللطيفة التي تدور حوادثها في قرطبة وعنونها: حديث ذال بَنُّ دا زَرْيَاب (Hadith del Bano de Zariab حديث حمَّام زرياب)، وقد قال عنها منندز بلايو أنها: «قصة قرطبية من طراز ألف ليلة، تمتاز ببساطة قالبها الأسطوري وظرفه. وهي تروي قصة الحيلة الساذجة التي لجأت إليها فتاة لتنقذ نفسها من رجل متهتك خادع دخلت بيته خطأ إذ كانت تقصد «حمَّام زرياب». بيد أن القيمة

(*) أي آباء الكنيسة، وهم كبار رجال المسيحية في أجيالها الأولى، الذين كتبوا فيها ودافعوا عنها وحددوا معالمها، من أمثال القديسَيْن أوغسطين وأمبروزيوس.

الحقيقية لهذه القصة إنما هي في طابعها نصف التاريخي، وفيما تقدمه إلينا من تفاصيل عن الحياة الخاصة لمسلمي الأندلس في أزهى أيام الخلافة؛ لأنها تدور في أيام المنصور بن أبي عامر. وزرياب الذي يُنسب إليه حمّام القصة إن هو إلا ذلك الموسيقي البغدادي المعروف، فَيْصَل الأناقة *arbiter elegantiarum* في بلاط عبد الرحمن الأوسط ومُبتكر الوَتَر الخامس في العود. ووصفُ الحمّام نفسه جدير بالذكر، لا بسبب ما يضمه من تفاصيل معمارية غريبة فحسب، بل لأنه نموذج من اللغة الغريبة التي كتبت بها هذه الكتب»(*).

وهناك أساطير واضحة المعالم مثل «يوسف وزليخة» Josè y Zelija*، فهي سلسلة من الحكايات متميز بعضها عن بعض، وكذلك قصتا «حديث ذي القرنين» و«حديث الملك الإسكندر» Recontamiento del Rey Alixandre، فهما ترويان حياة الإسكندر الأكبر كما تصوره الأساطير الشائعة عند المسلمين. [«والإسكندر في هذه الأسطورة المستعجمية لا يقنع بأقل من ربط خيله ببرج الثور وإلقاء سلاحه على الثريا، وليس له من هدف من غزواته إلا نشر [الإسلام] دين الله وتحريق الأصنام والقضاء على عُبَّادها، وإننا لنجد في هذه الأسطورة الإسلامية نفس الغرائب التي تحكيها أساطير الإغريق عن الإسكندر: شعوب غريبة يلقاها في مسيره، أناس لهم عين واحدة، وناس لهم رءوس كلاب، وآخرون لهم آذان يستظلون بها، وصنوف غريبة من الطير والحيوان، وأسرار وفضائل أودعها الله في المعادن والأحجار، هذا

(*) MENENDEZ PELAYO, op. cit. I, p. 111-112.

(*) هذا هو الاسم الذي وضعه المؤلف لهذه القصة المعروفة، وقد سماها ناشرها جيِّن روبلس «أسطورة يوسف بن يعقوب» Leyenda de Josè hijo de Jacob، أما العنوان الحقيقي لها فغير معروف؛ لأن الورقات الأولى من مخطوطها ضائعة.

Cf: F. GUILLEN ROBLES: Leyendas de Josè hijo de Jacob y de Alejandro el Magno. (Zaragoza, 1888) p.3.

كله نجد مثيله في هذه الأسطورة الإسلامية العجيبة»[*].

أما قصص الفروسية الموريسكية فحقيق بالذكر منها «حكاية المقداد والميّاسة التي يبدؤها مؤلفها بقوله: هذا هو حديث المقداد السعيد مع الميّاسة ابنة عمه الملك جابر أبي ضرار كما رواها ابن عباس»[*]. ولقد تخطت هذه القصص حدود إسبانيا، فنرى لمحات منها في أقاصيص بروفنسيه مثل باريس وفيانا Paris y Viana (باريس وفينوس). وربما كانت قصة المقداد قد تُرجمت إلى البروفنسيه عن ترجمة قطلونية لأصلها القشتالي على يد موريسكي أرغوني[١٤].

ومن القَصص الموريسكي ما نجد فيه موضوعات متواردة من القصص الشعبي العالمي، ومثال ذلك «حكاية الفتاة كار كايُونا بنت الملك نَشْرَاب مع اليمامة» Recontamiento de la doncella Carcayona, hija del rey Nachrab con la paloma[*]، وفي موضوعها مَشَابه من موضوع «كتاب أبولونيو» Libro de Apolonio وأسطورة «القديسة جنوفيف د بْرابانت» Santa Genoveva de Brabante، فكلاهما يدور حول حكاية «الفتاة ذات الأيدي المقطوعة» وهي تضع أيدينا على أصل القصة الإسبانية

(*) MENENDEZ PELAYO, op. cit. I. P. 111

(*) MARIANO DE PANO, El recontamicento de Al-Micded y Al Mayesa, Homenaje a Codera (Zaragoza, 1904) pp. 35-50

(*) يبدو أن اسم كار كايونه Carcayona تحريف للفظ Circasiana أي الشركسية؛ لأن عنوانها كما نشره بابلو خيل Pablo Gil هو:

Historia de la doncella Circasiana. Este es el recontamiento de la doncella Carcasiana, ficha del rey Nachrib'con la paloma.

انظر:

PABIO GIL, Manuscritos aljamiados de mi Colleccion in Homenaje a Codera (Zaragoza, 1904) p. 548.

المعروفة «سيلْفَانا أُو ر لجادينا» Silvana o delgadina التي كانت ذائعة متواترة في كل مكان في إسبانيا[١٥].